المقدمة

تاريخ العراق الإنساني موغل في القدم. حيث يبدأ منذ انحسر الطوفان واستوت سفينة نوح على الجودي. وهو الجبل المطل على العراق في شماله. وهذا أمر سار ذكره عند الأقدمين. وأخبر به القرآن الكريم.

وقد حظي العراق باهتمام واسع منذ أقدم الأزمنة فاقتبست كثير من الأمم والشعوب من حضارته. وأفادت من إبداعاته، وذكرت حواضره، بابل وبغداد، وتناقلت أخباره.

أولى أهل العراق اهتمامًا بماضيهم الذي صنعوه وشيدوه بكدهم وعرقهم، وأحيانًا بدمائهم، وعنوا بتناقل أخبار ماضيهم وحاضرهم وتاريخهم، يدركون منه عراقتهم ويطلعون فيه على منهلهم

إن تقدم الحضارة يتوقف على قوة الروح الدافعة في الإنسان. وعلى طموحه وفكره وعلى الجهد الذي يبذله للافادة مما تقدمه الطبيعة. والحق أن الإنسان في العراق قد أدرك ذلك.

في الأسطورة العربية القديمة أن طائر العنقاء كلما تعرض للنار المحرقة خرج من جمرها ورمادها أقوى جناحًا وأقدر على العلو والتسامي. والعراق في فترات التاريخ المتعاقبة يعطي لهذه الأسطورة دلالة وعمقًا. فقد وضع التاريخ على أرض العراق بصماته الحية وسماته الزاهية. فمنذ فجر الإنسانية، ومع تفتح الوعي البشري على الحياة الحضرية، كان العراق موطنًا للبشر وقلبًا نابضًا بالحياة. متصلًا بأسباب الحضارة وفي رقعته المتميزة على سطح الكرة الأرضية اظهر على تعاقب الحقب قدرة على إغناء البشرية. وبناء حضارة واسعة الآفاق متتابعة الفصول. ولكنها لم تقتل روحهم الدافعة. فكانوا يستمدون كيانهم ووجودهم بأقوى مما كانوا كطائر العنقاء.

لقد كشفت الآثار والتنقيبات إنه منذ أول إشراقـات الحضارة البشرية كان العراق موطنًا للإنسان عندما كانت لفظة الإنسان شاملة لكل البشر. قبل أن يتسموا وتحتفظ المتاحف اليوم بأثار تعود إلى ما وراء الخمسين ألف سنة لهذه الحياة البدائية المبكرة في أرض العراق والتي تؤكد على وجود إنسان "النيدرتال" الأول فيـه. وإنما عمل على النمو والتقدم. فـأصبحت الحياة في العـراق تعني الحضارة. وقد ظهر ذلك جليًا منذ أوائل الألف الخـامس قبل الميلاد في عدد من المستوطنات البشرية في أواسط العراق. وعند السومريين وهم بناة أول حضارة في تاريخ البشر.

إن السمة الإنسانية تتجلى باهتمامهم بالإنـسان. وحرصهم على العناية بدراسته وتيسير الحـياة له والعناية بتـوفيـر مـا ييسـر طمأنينتـه وازدهاره. وظهـر هذا الاهتمـام واضحًـا في حرصهم علـى حق الفرد في حرية العمل والكلام والعـقيدة. وتجلى ذلك فيـما أبدعوه من أفكار وآراء في مـختلف جوانـب الحياة الإنسـانية، وفي حـرصهم على تدوين المعـلومات لتبقى معينًا يفيد منه أهل العصر والأجيال التالية.

نعيش اليوم في عصر العلم، في عصر الذرة، وقد عاش أناس قبلنا في عصر الحجر، ثم البرنز، ثم الحـديد، ثم البخار، وفي كل يوم يوافـينا العلم بالجديد والغـريب، وآياته الباهرة تحيط بنا من كل جانب في أعماق الماء وأجواء الفضاء.

وللعلم تاريخ طويل بدأ منذ بدأ الإنسان يعمل ويفكر، ومـا سجل منه يرجع إلى بضعة ملايين من السنين. ولم تقف نشأته عند بيئة بذاتها، ولا شعب بعينه، بل ساهم فيه بنو البشر جميعًا كل بنصيبه، فتاريخه إذًا تاريخ الحضارة الإنسانية يسـجل حرمانها، وينتج تطوراتها ويعـرض مراحل نموها وازدهـارها، وفتـرات تلاشيـهـا وانقراضـهـا، ويبين مدى التـلاقي والتعاون بين الحضارات المتعاقبة.

وتاريخـه أيضًـا تاريخ العـقل البـشري، يرسـم محـاولاته الأولى التي أملـتهـا الغـريزة والحاجة. وظهرت صورة بدائية قامت على الجزئيات والخلط بين حقائق الأشياء.

من هنا لا بد لنا من إعـادة كـتابة التـاريخ من جـديد وهو لا ينفـصل اليـوم عن عمليـة

الصراع الدائر اليوم في منطقتنا العربية بشتى الوجوه وعلى مختلف الأصعدة بعد أن جاء هذا التاريخ في صميم المعركة السياسية والعسكرية والجغرافية والحضارية والثقافية واللغوية، إنه صراع لا يتجزأ بين الماضي والحاضر والمستقبل وهو يدار بكل شراسة.

إن الصراع إذًا في التاريخ والجغرافيا لم يعد مقتصراً اليوم على ما فعلته قوى الاستعمار والإمبريالية بالواقع العربي الراهن من تفتيت وقهر، وقسر على المراوحة وبقاء التخلف بل يتعداه إلى مدى آلاف السنين بعد أن جرت عملية زج ذلك من التاريخ القديم الطويل كله في معركة الصراع الدائر اليوم وأصبح جزءاً من الصراع الفكري والأيدولوجي والعقائدي السياسي. هذا هو الصراع اليوم بين حضارتين وثقافتين بنيت على التاريخ الذي بنا هذه الحضارة وقدم كل مجهوده العلمي والتاريخي والثقافي للعالم.

إن من يبحث عن الحقيقة التاريخية الموضوعية سوف يجدها في عملية الصراع نفسها، ومنطق الحياة في التاريخ هو أن الظلام، والقهر، والاستغلال، والاستعمار، والاحتلال قوى سوداء تقف ضد الإنسانية.

إن معرفة التاريخ لا تعني مطلقًا معرفة أحداثه وتسلسلها في الزمان والمكان، كما أنها لا تعني الإحاطة بما قد وضعه بعض المؤرخين من تحليلات وتفسيرات لتلك الأحداث، إنها أبعد من ذلك بكثير. إن مهمة المؤرخ قد تكون أصعب وأخطر من أية مهمة علمية أخرى.

إن الحديث عن الأرض التي يشغلها شعب من الشعوب أو أمة من الممم ليس حديثًا عن منطقة أو رقعة أو عقار. تنتقل ملكيتها من جماعة إلى أخرى. إنه الحديث عن الرحم والجنين. بكل ما بينهما من وشائج التنفس والغذاء. من هناك يمكن الحديث عن الأرض بمعزل عن الشعب. كما لا يمكن الحديث عن الشعب أو الأمة في معزل عن الأرض. لما لكل منهما أثر بالغ في تحديد ملامح الآخر وسماته التاريخية.

ولو أحببنا التعرف على الرقعة من الأرض التي شغلها الشعب العربي منذ أكثر من ستة آلاف سنة وحتى اليوم لوجدنا أنها الممتدة من البحرين الهندي والعربي ـ صعوداً إلى شواطئ الخليج العربي. وجبال زغروس من الشرق. ثم تتقوس باتجاه الغرب إلى جبال

طوروس. وينحدر الخط جنوبًا على طول الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط. ثم يطوق مصر كلها ويجعل من البحر الأحمر بحرًا عربيًا بأكمله. ويمتد على طول الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط حتى الأطلسي.

وكما نلاحظ. فإن هذا الخط الحدودي الذي يعود إلى أكثر من ستة آلاف سنة يشمل كل المناطق التي اسمها شبه جزيرة العرب. ودول منطقة الهلال الخصيب الممتدة من طرفه الشرقي على الخليج العربي. إلى المتوسط إلى وادي النيل ثم تابع العرب من كل الحضارات الفينيقية والسومرية والبابلية والأشورية، توسيع الرقعة لتتلائم مع حيويتهم التجارية المتدفقة وجعلوها تمتد من أوغاريت وصيدا وصور إلى زرع ثمانين محطة _ مدينة عربية منتشرة من قبرص إلى شواطئ الأطلسي.

الحضارة كالحياة صراع دائم مع الموت، وكما أن الحياة لا يتسنى لها أن تحتفظ بنفسها إلا إذا خرجت عن صورها البالية القديمة.

وهذا ما نحاول أن نخرج من جديد للحياة نحو آفاق جديدة، تعيد تاريخنا ونحاول أن نستفيد منه بقدر المستطاع لأن التاريخ هو ذاكرة الشعوب. وكما نتذكر اليوم ذلك التاريخ وتلك الحضارات العظيمة التي نفتخر بها جميعًا علينا أن نخطو نحوها وإعادة بناء أمتنا الحضارة هي صورة الحاضر والمستقبل.

د. عبد الكريم العلوجي